How did Ibn Battuta Survive the Pandemic? A Study in Surviving Tactics in Times of Pestilences

Elmahjoub Keddar

Abstract

The pandemic of the middle eighth century AH/ fourteenth century AD was one of the most virulent epidemics of the medieval era, regarding its rapid spread affecting most of the ancient world, and its fatality rate, estimated to millions. The spread of the deadly pandemic coincided with the return of the Moroccan traveler Ibn Battuta from his journey to the East, the starting point of the pandemic, which made him more liable to the epidemic. However, despite his movements between the areas of the plague, our traveler managed to survive contagion. Therefore, this article aims to explore how Ibn Battuta survived the contagious epidemic, namely that he followed the path of the epidemic's spread from east to west. To deal with this research problem, we adopt an inductive historical approach to investigate the nomadic text of Ibn Battuta, and to use the findings to compare them to other contemporary texts

Although Ibn Battuta did not mention his means of survival, following the path of his journey in the affected areas enabled us to deduce the ways of his survival. This latter was attributed primarily to prevention. The experience he accumulated through following the news from afar enabled him to form a comprehensive view about it, to know the ways of its transmission and tools to prevent himself from it, before getting in touch with it directly. It is not surprising then that Ibn Battuta survived that sweeping epidemic that decimated tillage and offspring around the world at that time. In conclusion, the article reflects the important role of the historian to probe into the past to identify how predecessors dealt with some of the problems prevailing today especially when it comes to epidemics.

Key words: Pandemic, the black plague, the eighth century, Ibn Battuta, a journey, survival, infection

كيف نجا ابن بطوطة من الوباء؟ دراسة في سبل النجاة زمن الأوبئة

الـــمـــحـــجـــوب قـــــدار

جامعـة سـيدي محمـد بـن عبـد اللـه ، المملكـة المغربيـة

الملخص

مثّل وباء منتصف القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي أحد أكثر الأوبئة ضراوة في الحقبة الوسيطية، سواء على مستوى مجال انتشاره الذي طال جل العالم القديم، أو على مستوى شدة فتكه بضحاياه الذين قدروا بالملايين. وقد صادف انتشار الوباء القاتل زمن عودة الرحالة المغربي ابن بطوطة من رحلته إلى الشرق الذي شكل منطلق الجائحة؛ مما جعله أكثر عرضة للإصابة بالوباء. لكن على الرغم من تنقلاته الكثيرة بين مناطق نزول الطاعون فقد استطاع النجاة من العدوى. ويروم هذا المقال البحث في كيفية نجاة ابن بطوطة من الوباء المعدي، وهو الذي سلك مسار انتشار الوباء من الشرق إلى الغرب. وقد سلكنا في معالجة هذه الإشكالية مقاربة تاريخية استقرائية للنص الرحلي لابن بطوطة، ومقارنة معطياته بما ورد في المصادر المعاصرة له. ومع أن ابن بطوطة لم يصرح بسبل نجاته، فإن تتبعنا لمسار رحلته بين المناطق الموبوءة قد مكننا من استنتاج سبل نجاته، المتمثلة أساسا في اتباعه لسبل الوقاية، فالخبرة التي راكمها في تتبعه للمرض عن بعد ومعرفته به قد مكنته من تكوين صورة وافية حوله وطرق انتقال العدوى وسبل الوقاية منه، حتى قبل الاتصال به أو معاينته مباشرة؛ ومن ثم فلا غرابة إذا كان ابن بطوطة قد نجا من ذلك الوباء الجارف الذي أهلك الحرث والنسل في أرجاء العالم وقتئذ. ومن هنا تأخذ حرفة المؤرخ أهميتها في التنقيب في الماضي عن سبل تعامل السلف مع بعض الإشكالات التي مازالت تتردد بشكل أو بآخر بشكل مستمر إلى وقتنا هذا، ولا سيما عندما يتعلق الأمر بالأوبئة.

المقدمة

تعرض العالم لأوبئة متعددة على مر تاريخه الطويل، تفاوتت في مدى خطورتها وحدة انتشارها وحجم الوفيات التي خلفتها، كما اختلفت في درجة ترددها بين فترة وأخرى، مُسهِمة في إحداث تغييرات كثيرة على مستوى البنية الديمغرافية والأنشطة الاقتصادية، فضلاً عن تغييرها لنمط الحياة اليومية للناس.

وإذا كان نطاق انتشار بعض الأوبئة لم يتجاوز مناطق جغرافية محدودة، فإن وباء منتصف القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي قد أطبق على معظم العالم القديم، وذاق حر الموت بسببه معظم سكان المعمورة بدءاً من آسيا الوسطى شرقاً وصولاً إلى المغرب الأقصى والأندلس غرباً وأوروباً شمالاً. ومن البدهي أن الوباء معلوم طابعه المميت والمعدي فإنه لم يميز بين شرائح المجتمع، وأضحى كل الناس مستهدفين به، سواء كانوا صغاراً أم كباراً.

وقد صادف انتشار هذا الوباء زمن عودة ابن بطوطة من رحلته إلى الشرق الذي شكل منطلق الوباء؛ مما جعله يعاين أخطاره ويعايش الموت التي تتسب فيه سواء بشكل مباشر أو غير مباشر، ناقلا لنا بعض أخباره، خاصة على مستوى بلاد الشام ومصر. ومع أهمية المعطيات التي قدمها ابن بطوطة حول الوباء، فإن الذي يهمنا في هذه الدراسة هو معرفة كيفية نجاة ابن بطوطة من هذا الوباء، علماً أنه كان أكثر عرضة للإصابة به أكثر من غيره بحكم كثرةتنقلاته، فضلاً عن كونه سلك المسار نفسه لانتشار الوباء في طريقه من الشرق إلى الغرب. فكيف أرخ ابن بطوطة لوباء منتصف القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي؟ وما المؤشرات الدالة على خطورة هذا الوباء؟ وكيف تعامل الناس معه؟ وكيف نجا ابن بطوطة منه؟

ولسنا في حاجة إلى تأكيد أن دراستنا لهذا الموضوع تنطلق من حاجتنا إلى الاستفادة من تجارب الماضي في مواجهة جوائح الحاضر، وليس ذلك غريباً عن حرفة المؤرخ الذي يظل مرتبطاً مع ظواهر مجتمعه الراهنة في تعقيداتها لأجل صياغة إشكالاته ومقولاته البحثية، فما أحوجنا إلى التنقيب في الماضي عن سبل تعامل السلف مع بعض الإشكالات

التي مازالت تتردد بشكل أو بآخر بشكل مستمر إلى وقتنا هذا، ولا سيما عندما يتعلق الأمر بالأوبئة.

وقد استندنا في معالجة الإشكالات المذكورة إلى مقاربة تاريخية مقارنة تروم استقراء نص رحلة ابن بطوطة، ومقارنة معطياته بمصادر أخرى عالجت موضوع الوباء خلال الفترة المدروسة، في أفق تفسير المعطيات المتوصل إليها، مع الاستعانة بما توصلت إليه الدراسات الحديثة في هذه الصدد.

1 - وباء منتصف القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي: محاولة في التحديد

يطلق الوباء على كل مرض عام شديد الانتشار يصيب السكان بأعداد هائلة وبصورة سريعة[1]. وفي الوقت الذي جعل بعضهم الوباء مرادفاً للطاعون، ميز البعض الآخر بينهما، وفي هذا الصدد يؤكد ابن حجر أن إطلاق اسم الطاعون على الوباء إنما هو في طريق المجاز، لكونه أخص منه، فكل طاعون وباء وليس كل وباء طاعوناً، ولكن لما كان الوباء ينشأ عنه كثير من الموت وكان الطاعون كذلك أطلق عليه اسمه[2]. أما ابن خلدون؛ فقد جعل الطواعين مخصوصة بالرئة[3]. ويقف وراء ظهور الوباء أسباب متعددة ربط ابن خلدون بعضها بفساد الهواء الناتجة من كثرة العمران، وما يسبب فيه من مخالطة العفن والرّطوبات الفاسدة للهواء[4].

ولا شك أن الوقع الكبير الذي كانت تخلفه الأوبئة في البلاد وفي قلوب العباد قد حفز العديد من العلماء والأطباءللتأليف عنها، وهكذا نعثر في التراث على عدد من المصنفات التي تطرقت للأوبئة تعريفاً ودراسة، في محاولة منها لفهمها وبيان حقيقتها، تعددت بين المقالات القصيرة والكتب المطولة، كما تنوعت زوايا النظر إليها بين الجوانب الشرعية والتاريخية والطبية. ومن بينها -على سبيل المثال لا الحصر- "رسالة الشفاء لأدواء الوباء" للكندي(ت نحو 260 هـ)، وكتاب "مادة البقاء في إصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الأوباء" لِمحمد بن أحمد التميمي المقدسي (ت بعد 370هـ)، و "مقنعة السائل" لابن الخطيب، و "تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد" لابن خاتمة

سنة 749هـ، بينما ألف الشقوري محمد بن علي اللخمي(كان حياً سنة 771 هـ) كتاب " تحقيق النبأ عن أمر الوباء " وهو المعروف بالنصيحة[5].

بيد أن الوباء الذي تزامن مع عودة ابن بطوطة في رحلته الأولى كان قد وقع في أواسط القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، وقد ارتبط بتسميات متعددة دلت بما لا يدع مجالاً للشك على خطورته المميتة؛ إذ سماه البعض بالطاعون الجارف[6]، بينما نعته البعض الآخر بالطاعون الأعظم والعظيم[7]، وبالوباء الوافد[8]، ووسمه ابن الخطيب بالمرض الهائل[9]، بينما أطلق عليه الإفرنج اسم الطاعون الأسود أو الموت الأسود[10]، وكذا الطاعون الدملي[11].

ويعرف ابن الخطيب هذا الوباء بأنه " مرض حاد، حار السبب، سمّي المادة، يتصل بالروح بدءاً بوساطة الهواء ويسري في العروق فيفسد الدم ويحيل رطوبات إلى السمية وتتبعه الحمى ونفث الدم أو يظهر عنه خراج من جنس الطواعين "[12]. أما أعراضه؛ فتمثلت في ظهور الخراج فيما خلف الأذنين أو الإبطين أو الإربيتين فيخر المصاب صريعاً أو أن يبصق دماً ويموت من وقته[13]. وبإلقاء نظرة على النصوص التي تخص هذا الوباء تتأكد لنا خطورته، سواء على مستوى عدد الوفيات التي قدرت بالملايين[14]، أو على مستوى المجال الجغرافي الذي عمه؛ إذ "عم أقطار الأَرْض وَخرب أَكثر الْبِلَاد "[15]؛ فكان بذلك غير مسبوق؛ إذ "لم يقع مثله فى سالف الأعصار "[16].

2 - التعريف برحلة بطوطة

لا أحد ممن عاش لحظة ولادة ابن بطوطة كان يخمن أن هذا الرجل الذي ولد بمدينة طنجة بالمغرب الأقصى سنة 703 هـ سيقوم برحلات فريدة ستبقى خالدة في التاريخ، فقد قادته رحلاته إلى أقطار بعيدة عن موطنه شرقاً وشمالاً وجنوباً. وعلى الرغم من الأهمية التاريخية والعلمية لابن بطوطة فإن المعلومات حوله في المصادر المعاصرة له تبقى شاحبة؛ إذ ورد ذكره والتعريف به في مظانّ قليلة. ترجم له ابن الخطيب في موسوعته الإحاطة، لكن معلوماته عنه لم تتعد صفحة واحدة، كما ذكره ابن خلدون في مقدمته لكن معلوماته حوله اقتصرت في معظمها على توصيف رحلته[17]. وعموماً فهو محمد

ابن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن يوسف اللواتي الطنجي، ويُعرفُ بابن بطوطة، سليل بيت علم وقضاء[18]. اعتبره ابن خلدون من مشايخ طنجة[19]، أما ابن الخطيب فيطالعنا بأنه كان يسير الطلب، بل يذهب بعيداً من ذلك ويتهمه بالكذب في كثير من أخباره[20]. والإشارة نفسها نجدها عند ابن خلدون الذي يخبرنا بأن الناس استفاضت في تكذيبه بسبب الأخبار العجيبة التي كان يحدث بها في رحلته[21]. وغير بعيد أن تكون المصادر المعاصرة له قد أهملت الترجمة له لقاء ما أشيع حول كذب أخباره. لكن المتتبع لرحلة ابن بطوطة سيجد إشارات كثيرة على حرص الرجل على لقاء العلماء والمشايخ، وحضور المجالس العلمية، بل إنه حصل على إجازات عديدة في بلاد الشام، وكان حريصاً على ذكر أسماء من أجازوه، كل ذلك يدل على أن الرجل لم يكن محدود العلم والطلب بل على العكس من ذلك، وإلا لما كان السلطان أبو عنان المعروف برعايته للعلم والعلماء ليقربه ويأمر بكتابة رحلته[22].

وعموماً فلما بلغ الرجل اثنتين وعشرين سنة خرج في رحلته الأولى، فدخل مصر والشام والعراق وبلاد الهند والسند والصين وبلاد اليمن، وحج في سنة 726 هـ، ثم قفل راجعاً إلى بلاده المغرب بعد تجارب عديدة قضاها في التجوال والترحال بين البلدان العديدة[23]. ولا شك أن المتعة[24] التي وجدها في الترحال هي التي دفعته إلى القيام برحلة أخرى إلى بلاد الأندلس ثم رحلة ثالثة إلى بلاد السودان[25]. واستغرقت رحلاته مجتمعة أكثر من 25 عاماً[26].

وقد التقى ابن بطوطة في رحلاته العديدة الملوك والأمراء وحاز عند معظمهم المكانة الرفيعة؛ إذ اتصل بملك الهند الذي قلده خطة القضاء بمذهب المالكية، كما اتصل بأبي عنان سلطان المغرب وقتئذ، فاستقبله وقربه وجعله من جلسائه، ومن تقديره إياه وللأخبار التي رواها عن البلدان التي زارها أن طالب كاتبه ابن جزي بتدوين رحلة ابن بطوطة، كما قلّد هذا الأخير منصب قاضي إقليم تامسنا[27].

ولأن رحلة ابن بطوطة قد طالت بلداناً عديدة فقد كان من الطبيعي أن يعايش أجناساً كثيرة، ويحتك بثقافات متعددة، ويعاين عادات غريبة وعجيبة أحياناً؛ لذلك

جاءت رحلته مليئة بالأوصاف والأخبار عن الأقوام والبلدان والأراضي التي زارها، التي وصلت أحياناً إلى درجة الغرابة والعجائبية؛ الشيء الذي دفع البعض إلى تكذيبها، كما أسلفنا سابقاً[28].

ومع أن طابع المبالغة قد يغلب على بعض أخباره، فإن رحلة ابن بطوطة تبقى على قدر كبير من الأهمية في فهم جوانب متعددة عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية للبلدان التي زارها خلال تلك الفترة، إذ لم يقتصر على نقل أخبار المدن والأمصار والأنشطة المميزة لكل قطر، بل نجد في رحلته أخباراً متعددة عن عادات البلدان وتقاليدها، كما نعثر في رحلته على أخبار الأمراض والأوبئة التي عاينها، وأبرزها الوباء الذي انتشر في معظم العالم خلال أواسط القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي.

3 - تأريخ ابن بطوطة لوباء أواسط القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي

لم يتحدث ابن بطوطة عن الوباء في رحلته كموضوع مستقل بقدر ما تحدث عنه في سياق تحركاته وما كان يصادفه من أحدث ومتغيرات، والواقع أنه تحدث عنه تارة باسم الطاعون وتارة أخرى باسم الوباء؛ مما يعكس عدم وعيه بالفرق بين الوباء والطاعون[29]. إلى جانب ذلك حدث له خلط في حديثه عن الوباء؛ إذ تحدث عنه في رحلة الذهاب أيضاً مع العلم أن الوباء لم يحدث إلا في رحلة العودة في أواسط القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي. وهذا من بين المؤاخذات التي أخذها عنه منتقدوه[30]. ومع أنه لم يخصص للوباء سوى حيز صغير من رحلته، فإن الإشارات التي قدمها ابن بطوطة حوله كفيلة بتكوين صورة مهمة حول خطورته. بيد أن الذي يعطي نوعاً من المصداقية للأخبار التي نقلها ابن بطوطة حول الوباء هو أنه عاش لحظات الوباء، ورأى الموت الذي كان يخلفه.

ومن الثابت عموماً أن ابن بطوطة صادف انتشار الوباء في رحلته الثانية؛ ففي طريق عودته من بلاد الشرق الأقصى، إذ يطالعنا أنه لما وصل إلى بلاد الشام عام 749 هـ، متنقلاً بين مدنه بلغه وقوع الوباء في غزة في أوائل شهر ربيع الأول من العام نفسه، وهو حينذاك في حلب، فقفل راجعاً إلى حمص، التي وجدها أنها قد أصيبت بالوباء هي الأخرى، فواصل سفره نحو دمشق فوجد أن الوباء قد خف بها، ومنها انتقل إلى بيت المقدس ماراً

بعدد من المراكز، فوجد أن الوباء قد ارتفع عن بيت المقدس[31].

واللافت للانتباه أن ابن بطوطة لم يكتف بذكر خبر الوباء بالمدن والمراكز التي مر بها، بل حرص على تقديم بعض الأرقام حول الوفيات التي كان يخلفها، وفي هذا الصدد يشير إلى أنه خلف في غزة أكثر من ألف وفاة في اليوم الواحد[32]، بينما مات حين دخوله إلى حمص 300 إنسان، أما دمشق؛ فقد بلغ عدد الوفيات 2400 في اليوم الواحد[33]؛ بينما بلغ هذا العدد 24 ألفاً في القاهرة ومصر في اليوم الواحد[34]، وبالإسكندرية 1080 في اليوم.

ولا شك أن الأرقام المخيفة التي قدمها ابن بطوطة تعكس حجم خطورة هذا الوباء وسرعة انتشاره، ومع علمنا بأن الأرقام السالفة تبقى أرقاماً تقديرية غير خاضعة للإحصاء الدقيق، فإن أن مقارنتها بما نقله مؤرخون آخرون عن هذا الوباء قد يرفع من درجة مصداقيتها. ولا تعدمنا النصوص الدالة على الأعداد الكبيرة للوفيات[35].

ومن القرائن الأخرى الدالة على خطورة هذه الجائحة أيضاً ما ذكره عن الأشياخ والمعارف الذين هلكوا بسببه، فجميع الأشياخ الذين كان يعهدهم بالقدس هلكوا بالوباء، فلم يبق منهم إلا القليل؛ مثل العالم صلاح الدين خليل العلائي والصالح شرف الدين الخشي. ولما سافر إلى غزة وجد معظمها خالياً من كثرة من مات بها في الوباء، إلى درجة أن هذا الأخير أهلك ثلاثة أرباع العدول الذين كانوا بها بشهادة أحد قضاة غزة[36]. والمصير نفسه لقيه كل المشايخ الذين كان يعرفهم في القاهرة[37]، كما توفيت والدته من جراء الوباء نفسه، وعلم بوفاتها لما وصل إلى تازة[38].

والظاهر أن شعيرة الحج لم تنقطع إبان فترة الوباء مع العلم بخطورة المرحلة واحتمال الوفاة؛ إذ يخبرنا ابن بطوطة أن قاضي القضاة عز الدين بن قاضي القضاة بدر الدين ابن جماعة قد توجه إلى مكة في ركب عظيم، وكانوا قد خرجوا في شهر رجب، مشيراً إلى أن الوباء مازال معهم وأنه لم يرتفع عنهم إلا لما وصلوا عقبة أيلة[39]؛ مما يفيد بأن ابن بطوطة وصل إلى القاهرة في أوائل شهر شعبان[40]. ويستشف من نص ابن بطوطة أن الوباء انتهى بالقاهرة حال وصوله إليها أو على الأقل قد خف بها بدرجة كبيرة؛ إذ منذ

خروجه من القاهرة متجهاً إلى مكة انقطعت أخبار الوباء لدى ابن بطوطة، مع العلم أنه وصل إلى مكة بتاريخ الثاني والعشرين من شعبان سنة 749 هـ. لكن لا يبدو أن الوباء قد انتهى بنهاية حديث ابن بطوطة عنه بدليل أن ابن تغري يشير إلى أن الوباء قد ابتدأ بمصر في أواخر سنة 748 واشتهر بمحرم واشتد طيلة شهور شعبان ورمضان وشوال، وارتفع في نصف ذي القعدة من سنة 749هـ[41]، بينما يشير القلقشندي أنه دام لمدة سنتين بمصر[42]؛ ومن ثم فالراجح أن ابن بطوطة أقلع الحديث عن الوباء لما خفت نسبة الوفيات التي كان يخلفها، نتيجة فهم الناس لطبيعة الوباء وكيفية الوقاية منه.

والراجح أن الوباء قد امتد إلى مطلع سنة 751 هـ، وحسبنا دليلاً على ذلك أن ابن بطوطة يشير إلى أن ادفنش الروم قد مات من الوباء خلال الفترة ذاتها[43]، وتتكامل هذه الإشارة مع نص أورده القلقشندي يفيد بأن الوباء دام لمدة سنتين بمصر[44]. أما على المستوى المجالي؛ فإذا كانت خريطة انتشار الوباء بحسب ابن بطوطة – قد غطت المناطق التي تنقل بها والممتدة من حمص في بلاد الشام شمالاً إلى القاهرة جنوباً مروراً ببيت المقدس، فإن ذلك لا يعني أن الوباء قد انحصر في هذه المناطق فقط، بل امتد إلى مناطق كثيرة شرقاً وغرباً شملت معظم العالم القديم، بما فيه آسيا وأوروبا وشمال إفريقيا[45]. وهكذا "عمّ الدنيا حتى دخل إلى مكّة المشرّفة، ثم عمّ شرق الأرض وغربها، فمات بهذا الطاعون بمصر والشام وغيرهما خلائق لا تحصى"[46].

وإلى جانب وباء 749هـ يتحدث ابن بطوطة في موقع آخر وبشكل عابر عن وباء ضرب عسكر سلطان الهند محمد بن تغلق[47] سنة 735 هـ مسبباً في موت معظم الجيش إلى جانب كبار الأمراء والعبيد[48]. وقد يبدو للوهلة الأولى أن الأمر يتعلق بوباء آخر على اعتبار المسافة الزمنية بينهما والتي تقارب 14 سنة، فضلاً عن غياب أي إشارة عن العلاقة بين الوبائين عند ابن بطوطة سوى الاسم المشترك. إلا أن القرائن المذكورة لا ترقى إلى مستوى إلغاء احتمال أن يكون الوباءين الذي تتسبب في موت جيش سلطان الهند هو نفسه الذي ضرب معظم العالم القديم في نهاية أربعينيات القرن الثامن الهجري. ومما يقوي هذا الاحتمال إشارة إحدى الدراسات الحديثة إلى أن الطاعون الأسود الذي وقع في أوروبا وعم العالم قد انطلق من آسيا الوسطى عام 735هـ/ 1335م[49]، بل هناك من

يرى أن هذا الوباء الدملي يحتمل أنه قد بدأ منذ سنة 730هـ/ 1330م بصحراء جوبي أو آسيا الوسطى[50]، وهو قول يتفق مع ما نقله ابن تغري[51]. وقد لا نستغرب من ذلك إذا أخذنا في الحسبان المسافة الكبيرة الفاصلة بين آسيا الوسطى وحوض البحر الأبيض المتوسط، فضلاً عن طبيعة وسائل التواصل التقليدية السائدة وقتئذ، دون أن ننسى خطورة الوباء الذي كان يقتل صاحبه في وقت ضيق لا يتعدى بضعة أيام؛ ومن ثم من الطبيعي أن يستغرق وصول العدوى إلى منطقة حوض المتوسط وقتاً طويلاً. وفي المقابل فانتقال العدوى بالوباء الجارف لم يستغرق سوى سنتين في انتقالها بين مناطق حوض البحر الأبيض المتوسط؛ نظراً لكثافة العلاقات التجارية والفكرية والحضارية بين دوله، إذا ما قورنت بعلاقة هذا الحوض مع آسيا الوسطى. ففي طريقه نحو المتوسط ضرب الوباء سنة 747هـ/ 1347م القسطنطينية والإسكندرية وصقلية ليبدأ في التحرك على حساب دول الشرق الإسلامي وشمال إفريقيا وأوروبا، وقد كان للتجار والهاربين من الوباء دور كبير في نقله من مكان إلى آخر[52]، فمسار انتشاره اتبع طرق التجارة الرئيسية في العصور الوسطى، إلى درجة أن خريطة انتشاره تكاد تنطبق على خريطة الطرق والمسالك التجارية وقتئذ[53].

ويبدو أن الوباء استمر في حصاد الأرواح في القارة الأوروبية إلى حدود سنة 752 هـ[54]؛ ليكون بذلك استغرق نحو 23 سنة بين ظهوره لأول مرة في آسيا الوسطى سنة 735هـ وآخر ظهور له في روسيا سنة 752هـ. ولعل هذه المدةكافية لتفسير الهول والهلع الذي أحيط به في مصنفات هذه الفترة؛ فقد قتل الملايين من الناس في القارات الثلاث آسيا وإفريقيا وأوروبا، محدثاً نزيفاً ديمغرافياً خطيراً على مستوى العالم[55]. إلا أن هذا لا يعني أن الوباء الجارف قد اختفى نهائياً، بل ظل يتردد على مناطق متعددة من العالم في فترات متقطعة بعد ذلك، إلى حدود منتصف القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي[56].

والواقع أن الناس خلال فترة الوباء لم يكونوا يعانون من خطر الموت بالوباء فقط، بل كان عليها مقاومة تبعاته السلبية وأهمها الغلاء الشديد الذي لحق المواد الأساسية[57]، وفي هذا السياق تفيد النصوص بنفاد البضائع من السوق لقلة الصناع والتجار[58]. بل

إن الأسواق نفسها أجبرت على الإغلاق بمصر وبلاد الشام، بعدما تعطلت معظم أنشطة الفلاحة والحرف والصنائع، والعطل نفسه أصاب مجال الصيد بموت الصيادين[59]. ومما يسترعي الانتباه أن يزهد أرباب الأموال في أموالهم ويبذلونها للفقراء أيام الوباء[60]، وهي إشارة يمكن تفسيرها برغبة هؤلاء في العمل من أجل الآخرة لعلمهم بدنو الأجل من جهة وكثرة السرقة من جهة أخرى. كما يمكن النظر إلى هذا السلوك باعتباره مبادرة من الأغنياء لمحاصرة الوباء ووعياً منهم بأن نجاتهم في نجاة الآخرين، وبخاصة الفقراء منهم. دون أن ننسى الجوع الذي تسبب به الوباء[61]، وما استتبعه من غياب للأمن وكثرة للسرقة[62]، وهكذا لم يعد الوباء هو الخطر الوحيد الذي عانى منه الناس، بل انضاف إليه الجوع والخوف والحزن الشديد، وكلها عوامل ضاعفت من حدة خطورة الأوبئة[63].

4 - نجاة ابن بطوطة من الوباء

أمام الانتشار الواسع لهذا الوباء المميت والجارف، أصبح البحث عن النجاة منه هاجس الجميع، ولا سيما أنه وباء لا يميز بين غني وفقير ولا بين إنسان وحيوان؛ إذ كان الجميع مستهدفاً، ولم تعد صحة الأبدان ولا كثرة الأموال أو حتى قوة الجيوش تنفع معه. ومع أن ابن بطوطة قد عاين انتشار الوباء ومخلفاته وتنقل بين المناطق الموبوءة إلا أنه نجا منه، مع العلم أنه كان شديد الترحال، فكيف نجا ابن بطوطة من الوباء. وما جهود محاصرته؟

الواقع أن ابن بطوطة لم يكن الناجي الوحيد من الوباء؛ فعلى الرغم من إسهام الوباء في هلاك كثير من الناس فإنه لم يقض على الجميع، بل هناك مناطق لم يدخلها قط[64]، إلا أن حديثنا عن نجاة ابن بطوطة من الوباء ينطلق من فرضية أنه كان من بين أكثر الناس عرضة للإصابة به لكثرة تنقلاته بين المدن المصابة بالوباء.

لا شك أن نجاة ابن بطوطة من الوباء لم تكن بمحض المصادفة؛ إذ إن رحلاته العديدة قد علمته كثيراً من الخبرات في كيفية النجاة من الأخطار والأمراض التي أحدقت به، ولم يكن الوباء الجارف سوى أحد المخاطر التي حاقت به خلال رحلاته؛ فقد تعرض إلى عدة مخاطر وأمراض كادت تودي بحياته[65].

إن تتبع مسار تنقل ابن بطوطة خلال فترة انتشار الوباء ببلاد الشام يمكن أن يساعد على فهم كيفية نجاته من الإصابة، بدءاً بلحظة سماعه بانتشار الوباء، فالرجل كان في حلب لما سمع بخبر انتشار الوباء بغزة، ولم يكن الوباء قد حل بحلب بعد؛ ولا يستبعد أن وجوده في منطقة غير موبوءة زمن سماعه بالوباء قد ساعده على تكوين صورة مهمة حوله وكيفية انتشار العدوى وسبل النجاة منه. لذلك نجده قد غذ السير بعد خروجه من حلب؛ حيث مر على كل من حمص ودمشق ثم بيت المقدس في مدة وجيزة دون أن يمكث في أي منهما بدليل أنه لم يطلعنا على أخبار كثيرة عن تنقلاته تلك كما يفعل عادة. ولعل خوفه من الوباء وهربه منه هو ما جعله يسرع في تنقلاته باحثاً عن منطقة غير مصابة. لكن لما وصل إلى بيت المقدس يخبرنا أنه التقى عدداً من المشايخ والعلماء؛ كالخطيب عز الدين بن جماعة[66]. ولا شك أن علمه بارتفاع الوباء عن بيت المقدس هو الذي شجعه على قضاء بعض الوقت به[67].

وليس ببعيد أيضاً أن يكون ابن بطوطة قد استفاد من الإجراءات التي أقدمت سلطات دمشق عليها لمواجهة انتشار الوباء؛ حيث يخبرنا أن سلطات دمشق أمرت الناس بالصوم لثلاثة أيام متواصلة كما منعت الطبخ بالسوق، علماً بأن أكثر الناس كانوا يأكلون الطعام الذي يصنع بالسوق؛ مما يعكس نوعاً من الحجر الصحي الذي حاولت السلطات أن تفرضه على السكان لمحاصرة الوباء، على الأقل على مستوى منع الطبخ وأكل الطعام الذي يصنع به بالسوق. وقد صادف وصول ابن بطوطة إلى دمشق يوم الخميس أواخر شهر ربيع الثاني من العام نفسه، وكان آخر الأيام الثلاثة، فقصد الناس المسجد تلك الليلة "ثم اجتمع الأمراء والشرفاء والقضاة وساير الطبقات على اختلافها في الجامع حتى غص بهم وباتوا ليلة الجمعة ما بين مصل وذاكر وداع، ثم صلوا الصبح وخرجوا جميعاً على أقدامهم وبأيديهم المصاحف، والأمراء حفاة وخرج جميع أهل البلد ذكوراً وإناثاً، صغاراً وكباراً، وخرج اليهود بتوراتهم، والنصارى بإنجيلهم، ومعهم النساء والولدان وجميعهم باكون متضرعون متوسلون إلى الله بكتبه وأنبيائه، وقصدوا مسجد الأقدام وأقاموا به في تضرعهم إلى قرب الزوال، وعادوا إلى البلد فصلوا الجمعة وخفف الله تعالى عنهم"[68].

ويستشف من النص السابق أن سلطات دمشق قد حضت الناس على أسلوب الوقاية الذي بات الحل الوحيد أمام هذا الوباء الذي لم ينفع معه أي علاج، بالإضافة إلى التضرع إلى الله –عز وجل– من طرف سائر سكان المدينة من المسلمين واليهود والنصارى؛ لأجل رفع البلاء. ولا شك أن إشارة ابن بطوطة إلى أن الوباء قد خف عليهم دليل على نجاعة الوقاية ثم الدعاء في تحقيق ذلك.

دون أن ننسى الخبرة التي راكمها ابن بطوطة في الشرق حول هذا الوباء ودورها في نجاته منه، فالرجل تعرف هذا الوباء الأول في الشرق سنة 735 هـ كما فصلنا في ذلك أعلاه، ومع أن نص ابن بطوطة لا يسمح لنا بمعرفة مدى اتصال ابن بطوطة بالمناطق الموبوءة على اعتبار أنه لم يكن مرافقاً لجيش السلطان لما أصابه الوباء، إلا أن ذلك لا يمنع من معرفة ابن بطوطة لطبيعة الوباء وكيفية العدوى به، وهو الرحالة الذي نقل لنا عجائب الشرق في مدونته الرحلية. لكن ما يدعو للغرابة في رحلة ابن بطوطة بخصوص هذا الموضوع أنه لم يربط في متنه بين الحادثتين؛ أي بين إصابة جيش السلطان من جهة وانتشار الوباء في بلاد مصر والشام من جهة أخرى، كما أنه لم يحدثنا عن أسباب الوباء وسبل الوقاية منه، مع العلم أنه صادفه لمرتين، وعاين بأم عينيه مدى فداحة الموت الذي كان ينتج عنه، بل نجا منه، وعاش بعده لمدة من الزمن. وفي المقابل نجده في موقع آخر من رحلته يعتد بالأسباب؛ إذ يربط بين مستوى منسوب وادي النيل مما يخلفه من آثار، مشيراً إلى أنه إذا "بلغ ثمانية عشر ذراعاً أضر بالضياع وأعقب الوباء، وإن نقص ذراعاً عن ستة عشر نقص خراج السلطان، وإن نقص ذراعين استسقى الناس وكان الضرر الشديد" (69).

وعموماً؛ فالاطلاع على مسار رحلة ابن بطوطة في حديثه عن الوباء يسمح لنا بالقول: إن الرحالة المغربي قد استجمع معلومات كثيرة حول هذا الوباء، وهي التي مكنته من تتبع سبل الوقاية منه وأخذ الاحتياطات اللازمة، أولاً في طريق عودته من عند سلطان الهند إلى بلاد الشام، ثم لما انتشر الوباء في بلاد الشام ومصر. ويمكن تفسير إحجامه عن التحدث عن أسبابه بكونه لم يكن متأكداً من معرفته حوله، ثم إنه لم يشأ أن يغامر بالحديث عن مجال هو أبعد منه وهو المجال الطبي، ولا سيما أنه زامن أطباء كباراً حملوا على عاتقهم الكتابة عن هذا الوباء وأعفوه من عناء ذلك، وقد أشرنا إلى بعضهم سابقاً، لذلك جاءت معلوماته عن الوباء مقتصرة على الجانب التاريخي الأدبي.

خاتمة

حاولت هذه الدراسة أن تحيط ببعض جوانب الوباء الذي ضرب العالم خلال أواسط القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، وصنف أحد أخطر الأوبئة التي شهدتها البشرية، محاولة الإجابة عن إشكالية كيفية نجاة ابن بطوطة من الوباء، ولا سيما أنه كان أكثر الناس عرضة للإصابة به لتزامن رحلته مع فترة انتشار المرض القاتل.

وعلى الرغم من عدم تصريح الرحالة المغربي بكيفية وسبل نجاته، فإن الإشارات التي وردت في رحلته قد ساعدتنا على إعادة ترتيب الصورة؛ إذ اتضح لنا بما لا يدع مجالاً للشك أن اتباع سبل الوقاية هي الطريقة الفريدة التي مكنت ابن بطوطة من النجاة، وهي نفسها الطريقة التي مكنت البشرية من الاستمرارية أمام وباء قاتل كهذا. ولا مراء أن متابعته للمرض عن بعد ومعرفته به قد مكنته من تكوين صورة وافية حوله وطرق العدوى والوقاية منه، حتى قبل الاتصال به أو معاينته مباشرة؛ ومن ثم فلا غرابة إذا كان ابن بطوطة قد نجا من ذلك الوباء الجارف الذي أهلك الحرث والنسل في أرجاء العالم وقتئذ.

وبفضل ما جادت به علينا تجربة ابن بطوطة في النجاة من هذا الوباء يمكن الوقوف على دور الوقاية ومركزيتها في مواجهة الأوبئة، ومع تقديرنا للسبل الدينية المرتبطة بالتضرع لله برفع الوباء، إلا أن الأخذ بالأسباب يأتي في الدرجة الأولى، وهو ما علمنا إياه ابن بطوطة بطريقة غير مباشرة، ولمسناه أيضاً في جهود سلطات دمشق في الإقلال من مسببات نشر الوباء وانتقاله.

وقد اتضح أيضاً أن الوباء نفسه قد أفضى في إحدى مراحل تطوره إلى إجبار الناس على الإقلاع عن أنشطتهم اليومية، سواء في الفلاحة أو ممارسة الحرف والصنائع؛ مما نتج عنه حجر صحي قسري، ما استتبع ذلك من تقلص انتقال العدوى، ولعل هذا ما سبب في اختفاء الوباء الجارف في موجته الأولى. ومن المحتمل أن العامل الذي أجبر الوباء على التراجع بعد منتصف القرن 17 هو الوقاية عبر تكثيف الحجر الصحي وتقنيات المقاومة القياسية التي طبقت وقتئذ[70].

خريطة انتشار وباء أواسط القرن الرابع عشر الميلادي عبر آسيا والشرق الأوسط وأوروبا وإفريقيا

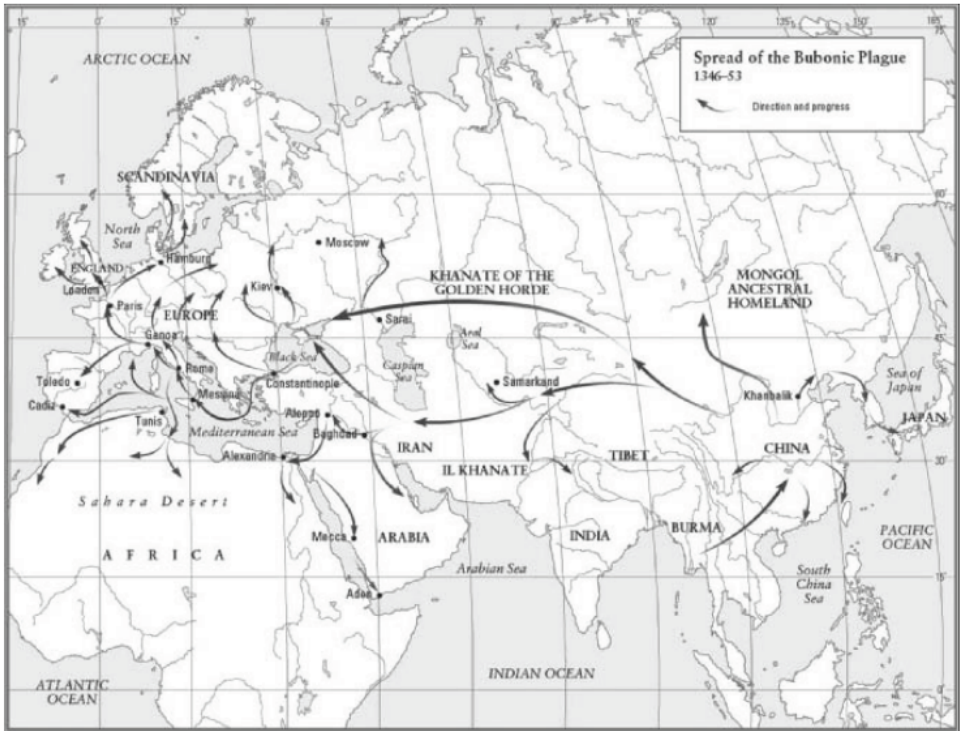

المرجع: Joseph P. Byrne,Daily Life,p 5

الهوامش والمراجع

(1) ابن منظور: **لسان العرب**، ط3، ج1، بيروت: دار صاد، 1414 هـ، ص189. العسقلاني، ابن حجر: **بذل الطاعون في فضل الطاعون**، تحقيق: محمد عصام عبد القادر الكاتب، الرياض: دار العاصمة، د. ت، ص22– 23. عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون: **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، تحقيق: خليل شحادة، ط2، ج1، بيروت: دار الفكر، 1408 هـ/ 1988 م، ص376. يماني، رشيد: " مواقف أطباء مملكة غرناطة منوباء منتصف القرن الثامن الهجري" ، **دورية كان التاريخية**، السنة12، عدد 43، مارس 2019، ص115.

(2) بذل الطاعون، ص102– 104.

(3) ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج1، ص376.

(4) ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج1، ص376.

(5) قام الباحث محمد حسن بجمع وتحقيق رسائل ابن الخطيب وابن خاتمة والشقوري في كتاب واحد، انظر: ثلاث رسائل أندلسية في الطاعون الجارف (749 هـ، 1348 م)، تحقيق و دراسة: محمد حسن، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة، ، قرطاج، 2013.

(6) ابن خلدون: **رحلة ابن خلدون**، عارضها بأصولها وعلق حواشيها: محمد بن تاويت الطَّنجي، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1425 هـ – 2004 م، ص 57.

(7) ابن بطوطة: **رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)**، ج1، الرباط: أكاديمية المملكة المغربية، 1417 هـ، ص 325. القلقشندي: **كتاب مآثر الانافة في معالم الخلافة**، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، ط2، ج2، الكويت: مطبعة حكومة الكويت، 1985، ص 155.

(8) ورد هذا الاسم في عنوان تأليف ابن خاتمة حول الوباء: "تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد".

(9) وورد هذا الاسم في عنوان مقالته حول هذا الوباء "مقنعة السائل عن المرض الهائل" لابن الخطيب.

(10) الزركلي ، الدمشقي: **الأعلام**، ط15، ج1، دار العلم للملايين، مايو 2002 م، ص176.

(11) - Shona Kelly Wray. Communities and Crisis Bologna during the Black Death. brill, Boston, 2009, p 1 .

(12) ابن الخطيب: **مقالة مقنعة السائل عن المرض الهائل**، تحقيق: حياة قارة، الرباط: دار الآمان، 2015، ص65.

(13) الحنفي، ابن تغري: **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، نشر وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ج10، دار الكتب، ص 198. مقنعة السائل، ص 66.

(14) النجوم الزاهرة، ج . 10، ص 233.

Joseph P. Byrne. Daily Life during the Black Death. Greenwood Press: London, 2006, p 5.

(15) كتاب مآثر الإنافة، ص 155.

(16) النجوم الزاهرة، ص 195.

(17) ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ص 227.

(18) رحلة ابن بطوطة، ص 80.

(19) ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ص 227.

(20) الإحاطة، ص 206.

(21) ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ص227– 228.

(22) رحلة ابن بطوطة، ص 83 – 86.

(23) ابن الخطيب: **الإحاطة في أخبار غرناطة**، ط1، ج3، بيروت: دار الكتب العلمية، 1424 ه، ص206.

(24) هناك دوافع أخرى تحكمت في رحلة ابن بطوطة منها رغبته في الحج ورغبته في الجهاد في الأندلس. رحلة ابن بطوطة، ص211.

(25) الإحاطة، ص206.

(26) رحلة ابن بطوطة، ص280

(27) رحلة ابن بطوطة، ص 81.

(28) الإحاطة، ص206.

(29) فالطاعون غير مرادف للوباء وإطلاقه عليه إنما هو بطريق المجاز؛ لكونه أخص منه، فكل طاعون وباء وليس كل وباء طاعوناً، ولكن لما كان الوباء ينشأ عنه كثرة الموت وكان الطاعون كذلك، أطلق عليه اسمه. بذل الطاعون، ص 102– 104.

(30) رحلة ابن بطوطة، ص125.

(31) رحلة ابن بطوطة، ج4، ص179.

(32) ويشير في موقع آخر إلى أن عدد الوفيات في غزة بلغ 1100 في اليوم الواحد، رحلة ابن بطوطة، ج4، ص180.

(33) رحلة ابن بطوطة، ص 179.

(34) رحلة ابن بطوطة، ج1، ص326. ويشير في موقع آخر إلى أن عدد الوفيات في القاهرة وحدها بلغ 21 ألفاً في اليوم. رحلة ابن بطوطة، ج4، ص181.

(35) رحلة ابن خلدون، ص 39–40. 57. 58. 45. 65. كتاب مآثر الأنافة، ص 156. النجوم الزاهرة، ص 195.

(36) رحلة ابن بطوطة، ص 180.

(37) رحلة ابن بطوطة، ج4، ص181.

(38) رحلة ابن بطوطة، ج4، ص 192.

(39) رحلة ابن بطوطة، ج4، ص181.

(40) رحلة ابن بطوطة، ج4، ص182.

(41) النجوم الزاهرة، ص 195.

42) كتاب مآثر الانافة، ص 156.

(43) وهو ألفونسو الحادي عشر ملك قشتالة الذي توفي في 20 مارس 1350 الموافق ل 10 محرم 751 هـ في أثناء محاصرته لجبل طارق. ج4، ص211. التازي: **التاريخ الدبلوماسي للمغرب**، ط 3، ج 7، بيروت، ص87– 89.

(44) كتاب مآثر الإنافة، ص156.

(45) A. Lloyd Moote and Dorothy C. Moote. The great plague: the story of London's most deadly year. The Johns Hopkins University Press: Maryland, 2004, 7.

(46) النجوم الزاهرة، ص 233.

(47) يعد محمد بن تغلق أحد سلاطين الدولة التغلقية التي حكمت الهند، حكم بين سنتي 725 و752هـ.

(48) رحلة ابن بطوطة، ج3، ص 208. 217. 247.

(49) السامرائي، خليل إبراهيم؛ طه، عبد الواحد ذنون، مصلوب، ناطق صالح: **تاريخ العرب وحضارتهم**

في الأندلس، ط1، بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2000 م ، ص 437 .

(50) Joseph P. Byrne. Daily Life during the Black Death.Greenwood Press: London, 2006, p 4.

(51) النجوم الزاهرة، ج10، ص 195 .

(52) النجوم الزاهرة، ج10، ص 199 .

(53) Joseph P. Byrne. Daily Life during the Black Death, p 4.

(54) op. cit, p x

(55) النجوم الزاهرة، ج10، ص 196 . 233 .

(56) واتس، شلدون: **الأوبئة والتاريخ والمرض والوقة والامبرالية**، ترجمة وتقديم: أحمد محمود عبد الجواد، ط1، القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2010، ص 66 .

(57) النجوم الزاهرة، ج10، ص 198 .

(58) كتاب مآثر الإنافة، ج2، ص 156 .

(59) النجوم الزاهرة، ج10، ص 198– 202 .

(60) كتاب مآثر الإنافة، ج10، ص 198– 202 .

(61) Joseph P. Byrne, Daily Life, p 135.

(62) النجوم الزاهرة، ج10، ص 198 .

(63) op. cit, p 135.

(64) يشير ابن تغري إلى أن الوباء لم يدخل معرة النعمان من بلاد الشام ولا شيزر والد حارما . النجوم الزاهرة، ج . 10، ص 197 . كما لم يدخل إلى المدينة المنورة بشهادة القلقشندي . القلقشندي، كتاب مآثر الإنافة، ج2، ص 156 .

(65) رحلة ابن بطوطة، ج4، ص 211/ ج4، 141/ ج2، ص 88 . ج4، ص 97 .

(66) رحلة ابن بطوطة، ج10، ص 180 .

(67) رحلة ابن بطوطة، ج10، ص 179 .

(68) رحلة ابن بطوطة، ج10، ص ج1، ص 325– 326 .

(69) رحلة ابن بطوطة، جس1، ص 208 .

(70) الأوبئة والتاريخ، ص 67 .